آسيا وبعض اروبا ، كل ذلك كان تحت ظل الخلافة الاسلامية ، لا يفضل أعرابي على أعجمي ولا أعجمي على حبشي ، فالاسلام يأمر باستخدام المواهب العقلية والقوة الطبيعية في سبيل المصلحة العامة ، بثبات العزيمة ووحدة الارادة في ميادين الحرية الفسيحة الارجاء ، فسما بالسجايا الحميدة والاخلاق الفاضلة والاتحاد والايتلاف الذي كان متجلياً بين سائر طبقات المسلمين .

واذا نظرنا من ناحية تقدم العلوم والمعارف نجدها امتدت وتزعزعت في جميع ممالكه بالرغم عن اختلاف الاجناس واللهجات ، فنضج الادب والفلسفة والحكمة والطب والتاريخ والاجتماع والهندسة ، ففي كل فن انتج لنا الاسلام جهابذة ونبغاء وعظماء ومفكرين في مختلف الاقطار الاسلامية ، حملوا راية مجد الاسلام قروناً عديدة ، فبددوا ظلام الجهل الحالك بأشعة العلم والمعرفة ، ذاك ما انجبت الحضارة الاسلامية فخدمت الانسانية وأحرزت على صولجان المجد بما ادته من الخدمة للثقافة والعلوم ويشهد لذلك العصر العباسي في بغداد ومدنية الاندلس والدولة الايوبية والطولونية بمصر وعصر الموحدين والمرينيين بالمغرب الاقصى الى غير ذلك مما لا يسمح المجال باستيفائه وحصره ، فترك عباقرة الاسلام مواد خصبة مهدوا بها السبل لمن جاء بعدهم فوجدوها كحديقة يانعة مثمرة ، فكانوا قدوة ورائداً لهم في الحياة ، والخلاصة أنه قد اتضح مما أسلفنا أن دين الاسلام بمركزه المتين كان أقوى عامل لتكوين المدنية الحديثة وأمتن اساس ترتكز عليه المدنية الحقة التي ستتكون في الشرق عامة وفي الاقطار الاسلامية خاصة بمقتضى ما نشاهده من العوامل ومظاهر النهوض الحالية بعد ما مكثت في حلقة الفتور والركود لعوامل شتى منها جوائح التتر والمغول والحروب الصليبية التي أنهكت قوى المسلمين ، فتكالبت عليهم عوامل شتى في قرون متوالية كانت كافية للضعف والانحلال حتى تدهورت الامم الاسلامية ، وصارت تسير في حياتها الاجتماعية مخالفة لمبادئ الاسلام وتعاليمه ، وبعد ما تحرك المسلمون من مضاجعهم قليلا فسيرى العالم في المستقبل مدنية لم تتقدم في العالم سيكون لها أثر فعال في نفع البشر والانسانية جمعاء .

أحمد بن احسان

ابن بطوطة ورحلته

- تتمة -

وهنا يجدر بنا أن نشير الى ما يوجه غالباً الى ابن بطوطة من الانتقادات حول مبالغاته وذكره للعجائب والغرائب الخارقة للعادة قال معاصره فخر المغرب ابن خلدون [1] : « قد ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى أن يدخل إيوانه إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات فتتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس

(1) مقدمة ابن خلدون المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٧ ص ٢٠١-٢٠٢.

من تكذيبه فقال الوزير فارس : « أياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يغتذي بها فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم ؛ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار ؛ فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا في لحم البقر والابل اذ لم يعاين في محبسه الا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس للفار وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب ، فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدّا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فاذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل ربي زدني علما . »

ولنلاحظ أن ما ذكره ابن خلدون من تكذيب الناس لابن بطوطة يرجع لمسائل تروى على الالسنة لما فيها من الغرائب وتنسب لابن بطوطة والامثلة التي أدلى بها ابن خلدون تختلف عما في الرحلة ثم ان العلماء قد أثبتوا أن كل ما في كتاب رحالتنا راجعاً للهند صحيح بشهادة مؤرخين آخرين من الهنود والفرس مثل فيرشتاه وخوندمير وغيرهما ، ثم ان ابن خلدون نفسه حاول تبرئ ابن بطوطة مما يرمى به من الكذب في حكايته السالفة عن الوزير فارس .

ويستفاد من هذ الفصل الهام من المقدمة أن ابن بطوطة كانت له شهرة كبيرة وأنه أثار بكتابه حركة في الاوساط العلمية وغيرها واشتغل الناس بالاخبار المروية في كتابه ، ولكنه يفيدنا أيضاً ـ ويا للاسف ـ أن ابن بطوطة كمعاصره العظيم ابن خلدون نبغا في عصر كانت فيه الحضارة العربية بدأت تدخل في دور الركود والانحطاط فلم يات بعد ابن خلدون من العرب من ينظر في العلم الذي استنبطه ويزيد فيه ويوضح معالمه ، كما أن الناس لم يهتموا من رحلة ابن بطوطة الا بالناحية المسلية المحتوية على الحكايات والعجائب .

وممن اتهم ابن بطوطة بميله لذكر العجائب والخوارق المستشرق ماك كوكين Mac Guckin (١) قائلا : « وفيه استعداد ظاهر للاستفادة من الوضعية التي كان فيها أيّ مجيئه من اراض بعيدة لم يصلها احد من ابناء جنسه فلا يمكنهم تكذيبه بحجة . » اننا لا ننكر أن ابن بطوطة حكى بعض الحكايات التي لا يقبلها العقل ولكننا نقول ان ابن بطوطة مخلص فيما يقول ومعتقد كل ما يحكي الا ما نبه عليه جامع الرحلة ابن جزي حيث قال : « خرج عن عهدته بما يشعر من الالفاظ بذلك . »(٢)

ثم ان كل من بحث رحلة ابن بطوطة وقابلها بالكتب المؤلفة في أيامه أو بعده بقليل توصل الى هذه النتيجة وهي أن ابن بطوطة ثقة أمين لا يمكن بوجه أن يتسرب الى نفوسنا الشك في اخلاصه وورعه .

وقد أحس ابن بطوطة نفسه بأن ما يذكر من أخبار الهند بغرابته وبعده عن مألوف مواطنيه كاحراق البراهمة بعد موتهم واحراق نسائهم أنفسهن معهم وكرم سلطان الهند وغير ذلك سيثير في نفوس مستمعيه الشك

(١) J. A. الجريدة الاسيوية مارس سنة ١٨٤٣ ص ١٨٤ .
(٢) رحلة ج ١ ص ١١ .

والريب فأقسم على ذلك بالايمان المغلظة كقوله : « وأنا أشهد الله ورسله وملائكته أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيدا ، واعلم أن بعض ما أترك من ذلك لا يسع في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل مادة ولكن شيئاً عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه لا يسعني الا قول الحق فيه وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق . »

ولنختم هذه الملاحظات العامة بكلمة قالها ارنست رنان E. Renan في تسامح ابن بطوطة قال الكاتب الفرنسي [1] : « إن ابن بطوطة كان سنياً متشدداً ولكنه لم يكن له تعصب ديني شديد » .

ومن أهم الحوادث التي وقعت له في سفره أنه لما غادر تونس عين قاضياً في الركب النبوي المتوجه الى الحجاز وهذا ينبئكم عن مقدار ثقافته العلمية على صغر سنه ، وعند ما وصل الركب الى صفاقس عقد فضيلة القاضي على بنت بعض امناء تونس ودخل بها بمدينة طرابلس الغرب ، ولو كان ابن بطوطة في وقتنا هذا لتزوج في طيارة تحمله الى الدنيا الجديدة التي لم يتح الله له زيارتها اذ ذاك ، ولكن مع الاسف لم يكن قرانه مع بنت الامين ذا امد بعيد لان رحالتنا كما يحب التنقل في البلاد ويبحث دائما على مشاهد جديدة لا يصبر أيضاً على حياة زوجية واحدة فعند ما غادروا طرابلس وقعت بينه وبين صهره مشاجرة أوجبت فراق بنته قال : [2] « وتزوجت بنتاً لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً وأطعمتهم » .

وعند ما كان بالاسكندرية التقى برجل صالح قال له : « أراك تحب السياحة والجولان في البلاد » فقال نعم فطلب منه أن يزور أخاه فلانا في الهند وآخر في الصين وثالثاً في السند قال ابن بطوطة : « ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين . . . فعجبت من قوله وألقي في روعي التوجه الى تلك البلاد » ، وبعد أن أدى فريضة الحج ذهب يسيح في العراق وبلاد فارس ثم رجع للحج مرّة ثانية وقضى بعد ذلك بمكة ثلاث سنين مجاوراً ثم غادرها وزار جزيرة العرب جنوباً وشمالاً ثم ذهب الى جنوب روسيا وهناك عينه ملكها للذهاب مع زوجه ابنة امبراطور الروم الخاتون بيلون الى القسطنطينية .

وبعد أسفار متعددة في نواح من آسيا مختلفة وصل الى دهلي عاصمة الامبراطورية الهندية الاسلامية حينئذ ، وقد حظي عند سلطانها وعينه قاضياً وكان الهنود يسمونه مولانا بدر الدين وبعد اقامته هناك مدة طويلة أرسله السلطان سفيراً الى امبراطور الصين ، ولكن الظروف منعته من الدخول الى الصين في تلك المدة فبقي في ذيبة المهل وهي الجزر المسماة عند الافرنج îles Maldives وعين هناك قاضياً ، ثم غادرها بعد ذلك ودخل الى الصين في ماموريته وزار بيكان وعند ما فارق الصين عزم على الرجوع الى وطنه فذهب الى مكة وحج للمرة الخامسة ثم قفل راجعاً .

ولما كان بمصر بلغه انتصارات السلطان أبي الحسن علي المريني وضمه المغرب كله تحت راية واحدة وذلك سنة ٧٤٧ (١٣٤٧) قال : « فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع ما شاقني من تذكار الاوطان . والحنين الى الاهل والخلان ، والمحبة في بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان » .

وعند ما وصل الى تونس في سنة ٧٥٠ وجد بها السلطان ابا الحسن واسطة عقد الدولة المرينية وحظي بالمثول بين يديه ثم غادر تونس على طريق البحر مع القطلانيين Les Catalans

(1) Journal des Débats du 14-12-1853.

(٢) رحلة ج ١ ص ٢٧ .

على ما ذكر ونزل بجزيرة سردانية ومنها أبحر الى مرسى تنس ووصل الى فاس على طريق البر يوم الجمعة أواخر شهر شعبان سنة ٧٥٠ (٨ نومبر ١٣٤٩) فقضى بها زمناً ثم ذهب الى الاندلس فزار جل عواصمها والتقى بادبائها ومن جملتهم ابن عمه محمد بن يحي ابن بطوطة قاضي رندة .

ولم يقتصر ابن بطوطة على زيارة الطرف الاكبر من آسيا وبعض أوربا وشمال افريقيا بل قرر التوغل في مجاهل افريقيا الوسطى أيضاً ولم يكن يعرف شيء كثير عنها في ذلك الوقت فرجع من الاندلس الى المغرب ثم قصد السودان على طريق البر ، وفي رحلته وصف مسهب لتلك البلاد وعوائد أهلها وقد تقدم أنه أول من دخل تلك الاقطار ممن دونوا رحلاتهم وبلغنا خبرهم .

وعند ما كان راجعاً الى المغرب وصله أمر السلطان أبي عنان فارس بن السلطان ابي الحسن المريني بالقدوم على حضرته فامتثل الامر ودخل فاسا في أوائل سنة ٧٥٥ (١٣٥٤) ولم يغادرها من ذلك التاريخ الى أن توفي سنة ٧٧٩ عن سن تزيد على خمسة وسبعين سنة رحمه الله .

وعند ما حل بفاس أمره السلطان باملاء رحلته على كاتبه محمد بن محمد بن جزي الكلبي الاديب المشهور ، فأنجز العمل بعد ثلاثة أشهر ، ومن تأمل رحلة ابن بطوطة يتبين له أن ابن جزي كان لا يزيد على كتابة ما يمليه الرحالة وفي بعض الاحيان ينقل كلام ابن جبير وبالخصوص عند وصف المدن الكبرى وغالب الابيات المذكورة في الرحلة من زيادات ابن جزي ايضا وكلما زاد شيئاً من عنده يقدمه بقوله : قال ابن جزي .

فالرحلة البطوطية هي على رأس الآثار العلمية التي خلفتها لنا الدولة المرينية وقد كان لها اعتناء كبير بالعلم وذويه ولا زالت آثار ذلك بينة الى يومنا هذا فان جل المدارس الموجودة بالاقطار المغربية من صنعهم ثم أنهم كانوا يقدمون العلماء والشعراء والكتاب ، ويكفيهم فخراً أن ابن خلدون أهدى كتابه العبر الى السلطان أبي فارس عبد العزيز اخ السلطان أبي عنان المهداة له رحلة ابن بطوطة ولا زالت نسخة المقدمة الخلدونية المبعوثة للسلطان المريني من مصر موجودة بخزانة جامعة القرويين بفاس .

محمد الفاسي

رئيس جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين

المصادر

Kosegarten, de Mohammede Ebn Batuta Arabe Tingitano ejusque itineribus commentatio academica Jenae 1818, in-4°, 51 pp.

S. de Sacy. — Compte-rendu de l'opuscule ci-dessus, in Journal des Savants de janvier 1820.

Reinaud. — Géographie d'Aboulféda, t. I, p. CLVI..

R. S. Lee. — Traduction anglaise de la rihla, London 1829.

Henricum Apetz. — Descriptio terrae Malabar, ex arabico Ebn Batutae etinerario edita, interpretatione et annotationibus instructa per H. Ap. 1819.

Jose de Santo-Antonio Moura. — Viagens extensas e dilutados do celebre arabe Aba Abdallah mais conhecido pelo nome de Ben-Batuta, traduzidas par J. de Santo Ant. Moura. Lisboa, t. I, petit in-4 de VII, 533 p.

M. Mac Guckin de Slane. — Ibn-Batoutah, Voyages dans le Soudan, trad. par M. G. de Slane, 62 pp. extr. du J. A. Paris 1843.

Defrémery. — Voyages d'Ibn-Batoutah dans la Perse et dans l'Asie Centrale, extraits de l'original arabe, traduits et accompagnés de notes par Defrémery, 162 pp. Paris 1843.

Ed. Dulaurier. — Description de l'Archipel d'Asie par Ibn Batoutah, trad. de l'arabe par E. Dul., 86 pp. Paris 1847.

H. von Mzik. — Die Reise des Arabers Ibn Batûta durch Indien imd China (XIV Jabrh.), dans Bibl. denkuoürdiger Reisers, t. V, Hambourg 1911.

Defremery. — Ibn Batoutah, Voyages dans l'Asie Mineure, trad. de l'arabe et accompagnés de notes historiques et géographiques par Defr., 96 pp. Paris 1951.

Cherbouneau . — Ibn Bat., Voyage du cheikh Ibn Bat. à travers l'Afrique Septentrionale et l'Egypte au commencement du XIV° s., trad. de l'arabe par Cher., 88 p. Paris 1952.

Defrémery et le Dr Somguinetti. — Ibn Bat., Voyages, texte arabe et trad. française par Def. et Somg., 5 vol. Paris 1853-1859.

Iterman Ahuquist. — Ibn Batouta resa genom Maghrib (voyage au Maghreb, texte arabe avec trad. et notes en suédois par It. Ah.), XV-16, 80 pp. Upsala 1866.

محمد شريف صبر السلطان - سياحت نامه ابن بطوطة - الجزء الاول ص ٤٤٤ الاستانة سنة ١٣٣٣ (١٩١٤) .

البيلوني - مختصر رحلة ابن بطوطة - مخطوط في غوطة وفي كامبردج .

مؤلف مجهول - مختصر ابن بطوطة - مطبوع على الحجر سنة ١٢٧٨. وقد طبعت الرحلة بالعربية مرارا متعددة .